الفصل الثالث

الإمتاع الأدبي

وكما كانت الاستجابة للنزوع الفني والتماس المتعة الأدبية باعثاً من بواعث رواية الشعر الجاهلي[1]، فإن أمرها ظل مرعياً في الإسلام كذلك، إلّا أن النظرة إلى الإمتاع أضحى منظوراً فيها الناحية العملية، وقوتها الطلبية في الفعل والتوجيه من جهة، ومرعياً في طلبها الإحسان والوعي من جهة أخرى، فضلاً عن الإمتاع المجرد لذاته؛ لأن الشعر يحرك النفس حركة هوى وشهوة، ويثير فيها غرائز متباينة من الفرح والغضب، والرضى والسخط، والرغبة والرهبة، فيحملها على التبعية لهذا التحريك وهذه الإثارة، وهي تبعية شعورية نفسية ترتبط بالشهوة ولا صلة لها بالعقل والتصديق، ولذلك جاء وصف هذا اللون من الشعر بالغي في قوله تعالى: ﴿والشعراء يتّبعهم الغاوون﴾.

يقول ابن تيمية في ذلك: «لما كان الشعر مستفاداً من الشعور فهو يفيد إشعار النفس بما يحركها، وإن لم يكن صدقاً، بل يورث محبة أو نفرة أو رغبة أو رهبة، لما فيه من التخييل، وهذا خاصة الشعر، فلذلك وصفهم بأنهم يتبعهم الغاوون. والغي: اتباع الشهوات، (التي هي هوى النفوس)؛ لأنه يحرك الناس حركة الشهوة والنفرة والفرح والحزن بلا علم، وهذا هو الغي، بخلاف الإفك فإن فيه إضلالاً في العلم

(١) د. عبد الحميد الشلقاني: رواية اللغة ص ٤٥.

يوجب اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به»[1].

وللشعـر قوة السحر في الاستمالة والإمتاع بما أوتي من أدوات قادرة على التأثير في النفس، وتشكيل الوجدان بضروب الصياغة والفن، يقول عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحـرا» «فقـد شبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر البيان بالسحر، إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته، والفصيح الذرب اللسان يستميل قلوب الناس بحسن فصاحته ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه رافعة»[2].

ولاقتران الشعر بالسحر في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم علة أخرى عند ابن رشيق القيرواني «لأن الشعـر يخيل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه، وكـذلـك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل، والباطل بصورة الحق، لرقة معناه ولطف موقعه»[3].

وفي المأثور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يبلور النظرية الإسلامية في التوازن بين طلب المتعة والفائدة العملية في رواية الشعر إذ يقول: «الشعر جزل من كلام العرب، يسكن به الغيظ، وتطفأ به الثائرة، ويتبلغ به القوم في ناديهم، ويعطى به السائل»[4].

ولا تعارض بين طلب المتعة الأدبية والتماس الفائدة العملية أو العلمية، بل لا فصل بينهما في هذا المجال، على الرغم من أن المتعة لا تكون كاملة إذا لم تكن خالصـة لذاتهـا؛ لأن الفصل بينهما أمر مجاف لطبيعة التذوق الأدبي وحقيقة النقد

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى جـ ٢ ص ٤٣.

(٢) الحافظ ابن حبان: روضة العقلاء ونزهة الفضلاة ص ٢١٩.

(٣) ابن رشيق القيرواني: العمدة ١/٢٧.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٢٨١.

الأدبي، الـذي تأتي فيه الفائدة العملية والعلمية نتاجاً تلازمياً لتعمق المتعة الأدبية والفنية في النصوص.

ولما كان الأمر بهذا التلازم، فإن الموقف الإيجابي الذي قيد به إطلاق الرواية التعليميّة تأديباً ورواية شواهد، يحسن ألّا يتخلى عنه الراوية في مجال المتعة الأدبية والفنية، وقـد حملت مواقف الصحـابة والتابعين والفقهاء ملامح دالة على هذا الإحسان.

فقـد جرى إنشاد الصحابة للشعر الجاهلي في مجالسهم قصداً للمتعة، وفي الآثـار المروية لذلك إطلاق وتقييد، فعن جابر بن سمرة قال: جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم معهم»[1].

وروى البخاري عن اسحاق قال: حدثنا الوليد بن جميع عن أبي سلمة عن عبد الرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»[2].

ويدل حديث جابـر بن سمـرة على إباحة مطلقة في تناشد الصحابة استمتاعاً بالشعر بألوانه وأغراضه المختلفة، على الرغم من رضى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قليل مما كان يجري إنشاده في مجالسهم «فربما تبسم معهم»، ويعضد الحديث الـذي رواه البخـاري التماس الصحابة المتعة بالشعر، غير أنه يعطي موقفاً إيجابياً متميزاً في تقييد طلب المتعة بالحسن من الشعر، إذ أن دوران حماليق العينين موقف تعبيري عن الرفض لما ينشد، والسخط لما يجري من حديث ورواية شعر.

وكانت متعة عمر بن الخطاب بالأدب عظيمة، خاصة إذا جمع الشعر إلى طرافة

---

(١) أخرجه الترمذي بحديث رقم ٢٨٥٠ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) البخاري: الأدب المفرد ص ٨١ والزمخشري: الفائق ١/٢٧٥.

المعنى تهذيب الأداء، يقول العقاد في ذلك: «وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها، فكان يقول: «لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الثمر، لم أبال أن أكون قد مت، وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ. . . ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، لم ينكر من الشعر إلّا ما ينكره المسؤول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلّا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضي المتحرز الأمين»[1].

وهذا التوازن بين ما يفرضه الدين وما تنزع إليه النفس من رغائب المتعة الفنية يزيدها اطراداً ووضوحاً حوار عبد الله بن عمر وإياس بن خيثمة، حين قال إياس له: «ألا أنشدتك من شعري يا ابن الفاروق قال: بلى، ولكن لا تنشدني إلا حسناً، فأنشده، حتى إذا بلغ شيئاً كرهه ابن عمر قال له: أمسك»[2].

وهذا الأمر بالإمساك عن الإنشاد والسماع موقف فيه إحسان، يوازيه ويقاربه تعقيب على المسموع المنشد يخرج السامع من تبعة وزر ما يسمع، روى المبرد من غير وجه أن سفيان بن عيينة قال لجلسائه يوماً: إني أرى جارنا هذا السهمي قد أثرى وانفسحت له نعمة، وصار ذا جاه عند الأمراء، ووافداً إلى الخلفاء فمم ذاك؟ يعني يحيى بن جامع، فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة فيتغنى له: فقال سفيان: فيقول ماذا؟ فقال أحد جلسائه يقول:

أطوف نهاري مع الطائفين وأرفع من مئزري المسبل

فقال سفيان: ما أحسن ما قال! فقال الرجل:

وأسهر ليلي مع العاكفين وأتلو من المحكم المنزل

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر (المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد) ص ٥٦٩-٥٧٠.

(٢) البخاري: الأدب المفرد ص٨٨.

قال: حسن والله جميل، قال: إن بعد هذا شيئاً، قال سفيان وما هو؟ قال:

عسى فارج الكرب عن يوسفٍ يُسَخِّرُ لي ربّة المِحْمَلِ[1]

فزوى سفيان وجهه، وأومأ بيده أن كفَّ، وقال: حلالاً حلالا!

ولا يعني الأخذ بالتوازن منطلقاً لتحقيق الإحسان، إغفال طلب المتعة الأدبية لذاتها الجمالية من غير نظر إلى توابع ذلك من فوائد العمل والتعليم، ويستأنس لذلك بحديث مقطوع السند، فعن العجاج أنه سأل أبا هريرة ما تقول في هذا:

طاف الخيالان فهاجا سقما خيال سلمى وخيال تكتما
قامت تريك رهبة أن تصرما ساقاً بخنداة وكعباً أدرما

فقال أبو هريرة: كنا ننشد هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعيبه»[2].

ويرفع الحرج في رواية نظائر هذا الشعر وأمثاله ما أخرجه ابن قتيبة عن قتادة عن أبي الغالية؛ أنه كان مع ابن عباس وهو مُحْرِم، فقال ابن عباس:

وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننل لميسا

فقالوا: تقول الرفث وأنت مُحْرِم يا ابن عباس، فقال: إنما الرفث عند النساء»[3].

وقيل لابن سيرين إن قوماً يرون أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء فقال:

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم قال: الله أكبر ودخل في الصلاة.

---

(١) المبرد: الكامل ٢/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/ ١٣٠ قال الهيثمي: «رواه الطبراني عن شيخه رُفَيع بن سلمة ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٣٢١.

وسئل عن ذلك مرة أخرى وقد استفتح الصلاة فأنشد للأعشى:

وتسخن ليلة لا يستطيع نباحاً بها الكلاب إلا هريرا
وتبرد برد رداء العروس بالصيف رقرقت فيه العبيرا

ثم كبّر وصلى.

وقال جرير بن حازم: كنت في مسجد الجهاضم فقرضت بيت شعر فقالوا: ما نراك إلّا قد أحدثت فتوضأ، فذعرني قولهم، فأتيت ابن سيرين وقد قام إلى الصلاة، فقلت رويدك يا أبا بكر، فقال: مهيم؟ فعرفته، فقال: هلا رددت عليهم:

ديار لرملة إذ عيشنا بها عيشة الأنعم الأفضل
وإذ ودها فارغ للصديـ ـق لم تتغير ولم تتبدل
كأن الثلوج وماء السحا ب والقرفية بالفلفل
وماء القرنفل والزنجبيـ ـلِ شيب به ثمر السنبل
يصب على برد أنيابها قبيل الصبح ولم ينجل

ثم قال: الله أكبر.

وقيل لابن سيرين أيضاً: أنشد القذع من الشعر وأصلى؟ فقال:

وأنت لو باكرت مشمولة صفراء مثل الفرس الأشقر
رحت وفي رجليك ما فيهما وقد بدا هنك من المئزر[1]

والأخبار السابقة مسوقة في حوار قاصد إلى بيان حكم إنشاد شعر الرفث والقذع، وهي ذات دلالة على إباحة رواية شعر الغزل والخمر استمتاعاً، غير أن هذه المتعة ملحوظ فيها الحسن وطلبه، والقبح وتجنبه، فقد روي عن ابن سيرين نفسه محاورة فيها إبانه عن معيار التماس المتعة بالشعر، إذ أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه:

---

(١) الحصري القيرواني: جمع الجواهر ص ٣٢.

مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر فقال: ويلك يا لُكَعُ[1]! وهل الشعر إلّا كلام لا يخالف سائر الكلام إلّا في القوافي، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، قال: وكانوا يتذاكرون الشعر، قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يحب الخمر من مال الندامى ويكره أن يفارقه الغلوس[2]

وهذه المرويات وإن كانت مما لا يعتد بها دليلاً يقينياً؛ لفقرها إلى الوثوق بسندها، وعدول رجالها، إلا أنها تظل معيناً على التصور، ومرشداً إلى الترجيح بأن موقف المجتمع الإسلامي في قرنه الأول من الاستمتاع بالشعر يمثله فئتان:

الفئة الأولى: وهي التي تعيش الحياة جداً محضاً، وتصورها لما يجري فيها من مناشط قولية وفعلية على أنه من فضول العيش الذي لا خير فيه، ولذلك فإن هذا الضرب من الشعر الغزل أو المقذع من وصف الخمر وغيره مما تعاب روايته، ويلحق النقص طالبه، ويثلم عبادة المرء ويخل بها، وفي الحياء والحياة للمرء عنه غنى وفضل، ينبىء عن ذلك التساؤل: تقول الرفث وأنت مُحْرِم؟ وهل الشعر من الرفث؟ والتساؤل المتعجب: مثلك ينشد الشعر؟!.

والفئة الثانية: فقهت الحياة ساعة وساعة، تستعين بواحدة على قضاء أخرى من غير إفراط أو تفريط، لتحقيق التوازن في شأن الإنسان؛ سمو أشواقه، وهبوط رغباته، ولذلك كان الشعر عند هذه الفئة والاستمتاع به لوناً من ألوان الكلام، فلا زهد في تداوله، ولا جهل لحقيقة إمتاعه وتأثيره النفسي، فليس الرفث في كلام ينشد، ولا الرجس في ترداد شعر تبدو الرغبة فيه بمعاقرة الخمر، أو يفصح صاحبه عن شوق إلى لهو، إنما الرفث فعل ومقدمات طلب، والرجس كأس تكرع، وعقل يخمر، وهذيان يسمع، فهو فعل ونتاج فعل.

---

(١) اللُّكَعُ: اللئيم الأحمق.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٤٨.

وكان شعر عمر بن أبي ربيعة أوضح نموذج يمثل تباين هاتين الفئتين تشدداً في رفضه، وتسامحاً في قبول الاستمتاع به، فقد نظر المتشددون إلى شعر عمر من جهة إغرائه بالفتنة، وترغيبه بالفاحشة، إذ فيه فحش ومجانبة للحياء، يقول هشام بن عروة: «لا تروا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لا يتورطن في الزنا تورطا»[1]. وحرص عبد الله بن مصعب على أن يظل أهل بيته بمنجاة من تداول شعر عمر بن أبي ربيعة؛ لفساده وقدرته على تسهيل ركوب المعاصي، تقول فاطمة بنت عمر بن مصعب: «مررت بعبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله بفنائه، ومعي دفتر، فقال: ما هذا معك؟ ودعاني فجئته، وقلت: شعر عمر بن أبي ربيعة، فقال: ويحك! أتدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة، إن لشعره موقعاً من القلوب، ومدخلاً لطيفاً، لو كان شعر يسحر لكان هو، فارجعي به، قالت: ففعلت»[2].

وينازع في هذا التشدد تسامح صادر عن إباحة شعر عمر غير مبالغ في تحسس آثاره وأخطاره، بل ناظر إلى أن فيه ترويحاً وإمتاعاً، فهذا سعيد بن المسيَّب، أحد فقهاء المدينة السبعة من التابعين، يسأل نوفل بن مساحق في مجلسه بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر، من أشعر صاحبنا أم صاحبكم؟ يريد عبد الله بن قيس أو عمر بن أبي ربيعة، فقال نوفل: حين يقولان ماذا يا أبا محمد؟ قال: حين يقول صاحبنا:

خليلي ما بال المطايا كأنما نراها على الأدبار بالقوم تنكص

. . . الأبيات.

ويقول صاحبك ما شئت، فقال نوفل: صاحبكم أشعر في الغزل، وصاحبنا أكثر أفانين شعر، فقال سعيد: صدقت، فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشعر، جعل سعيد

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١/٧٤.

(٢) المصدر نفسه ١/٧٨.

يستغفر الله ويعقد بيده حتى وفىّ المائة»[1].

والخبر في هذه المرويات ذو دلالة مقيدة بالإشارة المحتملة للصدق والكذب، خاصة أنها تفتقر إلى الراوية العدل الضابط، فهي مسندة إلى أبي الفرج الأصفهاني الذي لم يقصد إلى أقوى الروايات سنداً مما وصله، بل يرويها من غير تمحيص، ولو لم تكن من الحقائق، أو لا أصل لها؛ لأن من غاياته التي يرمي إليها الإمتاع والمؤانسة[2].

قد يرفع من درجة الصدق في مرويات التابعين المنكرة لشعر عمر بن أبي ربيعة ما سبقت الإشارة إليه من مواقف الإحسان عند بعض الصحابة في سماع الشعر والاستمتاع به، لكن المرويات المستحسنة لشعر عمر ضعيفة منكرة، وهي مقيسة غالباً على مروية أخرج سندها أبو الفرج الأصفهاني عن ابن عباس في استماعه وإنشاده لرائية عمر بن أبي ربيعة في الحرم المكي. ولخطورة هذه المروية في تنظير الباحثين للإمتاع وإباحته على إطلاق أغراض الشعر وأنماطه، نقف عندها وقفة متأنية التحليل رواية ودراية.

قال المبرد: «ويروى من غير وجه أن ابن الأزرق أتى ابن عباس يوماً فجعل يسأله حتى أملّه، فجعل ابن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة على ابن عباس، وهو يومئذٍ غلام، فسلّم وجلس، فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا شيئاً من شعرك؟ فأنشده:

أمن آل نعم أنت غادٍ فَمُبْكر غداة غدٍ أم رائح فمهجر

حتى أتمها، وهي ثمانون بيتاً، فقال له ابن الأزرق؛ لله أنت يابن عباس! إنا نضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشدك

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١/ ١١٣-١١٤.

(٢) محمد أحمد خلف الله: أبو الفرج الأصفهاني الراوية ص ١٩٠ وما بعدها.

سفهاً فتسمعه!، فقال: تالله ما سمعت سفهاً، فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمس عارضت فيضـحى وأمـا بالـعـشي فيخـسـر

فقال: ما هكذا قال؛ إنما قال:

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمس عارضت فيضـحى وأمـا بالـعـشي فيخـصـر

قال: أو تحفظ الذي قال؟ قال: والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه، ولو شئت أن أردها، فأنشده إياها كلها.

وروى الزبيريون: أن نافعاً قال له: ما رأيت أروى منك قط، فقال ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر، ولا أعلم من عليّ»[1].

وتـأتلف هذه المحاورة مع ما سبق بيانه من موقف فئتي المجتمع المسلم في القرن الأول الهجري من الإمتاع بالشعر، فنافع بن الأزرق يبدو متشدداً في هذا الأمر، حيث يرى شعـر ابن ربيعـة في مجـونـه وخـلاعته سفهاً لا يجوز الاستماع إليه أو الاستمتاع به، ولذلك فهو يقول متعجباً من مذهب ابن عباس في الرائية: «لله أنت يابن عباس! أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه!» وإمعاناً من ابن الأزرق في إثبات السفاهة في شعر ابن ربيعة فقد روى على مسامع ابن عباس قول عمر مغيّراً فيه:

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمس عارضت فيخـزى وأمـا بالـعـشي فيخـسـر

وكان ابن عباس مع الفئة الثانية في استنشاده لغزل عمر واستمتاعه به، ولذلك

---

(١) المبرد: الكامل ٣/٢٢٨.

وفي رواية أبي الفرج الأصفهاني قال: «وفي غير رواية عمر بن شبه أن ابن عباس أنشدها من أولها إلى آخرها، ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة، وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً، قال: وهذا غاية الذكاء، فقال بعضهم: ما رأيت أذكى منك قط، فقال: لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام».

فهو ينفي السفاهة عن شعر عمر «تالله ما سمعت سفهاً» بل إن ابن عباس يستجيد القصيدة كما تشي بذلك المحاورة في سياقها العام، فضلاً عن خصوص الدلالة في الرواية الأخرى التي تقول: «ولامه بعض أصحابه في حفظ هذه القصيدة (أمن آل نعم) فقال: إنا نستجيدها»[1].

وأغلب الظن أن نافع بن الأزرق لا يصدر في أحكامه عن تصور فردي لشعر ابن أبي ربيعة، بل يعطي تصويراً لفقه بيئة العراق وأهلها، من الاستمتاع بالماجن من شعر الغزل، إذ يعزز ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني بقوله: «كان رجل بالكوفة من الفقهاء تجتمع إليه الناس، فيتذاكرون العلم، فذكر يوماً شعر عمر بن أبي ربيعة فَهَجَّنَه»[2].

وإذا تجاوز الباحث أمر التباين في الرأي؛ لأنه ظاهرة طبعية لاختلاف الدليل المرجح قوة وضعفاً، فإن محاورة ابن الأزرق وابن عباس منقوضة رواية ودراية.

محاورة ابن الأزرق لابن عباس رواية

ساق المبرد (ت ٢٨٥هـ) خبر هذه المحاورة ممرضاً إذ صدره بالقول: «ويروى من غير وجه» وعلى الرغم من أن هذا التصدير مفهم بتعدد طرق الإسناد في رواية المحاورة إلا أن المبرد لم يشر إلى واحد منها يتأكد فيه صحة الإسناد باتصال دون انقطاع بابن عباس، بل لم يخرج الخبر عن أحد من الرواة الثقات جرياً على منهجه في إسناد مروياته إذا تعددت طرقها، إذ يقول على سبيل المثال: «وقد روينا هذا الخبر من غير ناحية الرياشي بأتم من هذا الإسناد، ولكن اقتصرنا على هذا لثقة إسناده»[3].

على أن الروايات المتعددة، التي قد يقصدها المبرد في مقولته والتي سبق عرضها، ضعيفة مردودة على اختلافها[4].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١/٧٣.
(٢) المصدر نفسه ١/٧٥.
(٣) المبرد: الكامل ١/٢٦٧.
(٤) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب ص ١٨٨-١٨٩.

حقاً أن إسناداً تاماً لهذه المحاورة نجده عند أبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ومن غير الطرق التي وردت عند ابن الأنباري والطسي والسيوطي إذ يقول: «أخبرني الجوهري والمهلبي قالا: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثني هارون بن عبد الله الزهري قال: حدثنا ابن أبي ثابت، وحدثني به علي بن صالح بن الهيثم عن أبي هفان عن اسحاق عن المسيبي والزبيري والمدائني ومحمد بن سلام قالوا:

قال أيوب بن سيار وأخبرني به الحرمي بن أبي العلاء قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثني محمد بن الحسن المخزومي عن عبد العزيز بن عمران عن أيوب بن سيار عن عمر الركاء»[1].

وفي هذا الإسناد عدد من الرواة ممن لا تؤخذ روايته لأنه متروك أو منكر الحديث أو ضعيفه؛ فأيوب بن سيار الزهري أبو سيار المدني قال ابن معين: ليس بشيء، وسئل عنه ابن المديني فقال: ذاك عندنا غير ثقة، لا يكتب حديثه، وقال السعدي: غير ثقة، وقال النسائي متروك[2].

وعبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني الأعرج، يُعرف بابن أبي ثابت مات سنة سبع وسبعين ومائة. قال ابن حجر: متروك، احترقت كتبه فحدث من حفظه، فاشتد غلطه[3].

ومحمد بن الحسن بن زَبَالة المخزومي، أبو الحسن المدني من كبار العاشرة مات قبل المائتين، قال ابن حجر: «كذبوه»[4].

ومحمد بن سلام الجمحي البصري قال فيه أبو خيثمة: «لا يكتب عن ابن سلام

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١/ ٧١-٧٢.

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال ١/ ٢٨٨-٢٨٩ الضعفاء الكبير ١/ ١١٢-١١٣.

(٣) التقريب: ١/ ٥١١ تهذيب الكمال ٢/ ٨٤١.

(٤) تهذيب الكمال: ٣/ ١١٨٧ التقريب ٢/ ١٥٤.

الحديث، رجل يرمى بالقدر، إنما يكتب عنه الشعر»[1].

وأبو العباس المدايني الضرير ابن أخي شبابة بن سوار قال ابن حجر: «ضعيف من صغار التاسعة، مات سنة عشر ومائتين أو بعدها»[2].

وأبوهفان الشاعر حدث عن الأصمعي بخبر منكر، قال ابن الجوزي: لا يعول عليه[3].

أما أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن... الأموي الكاتب المعروف فقد ضعفه ابن الجوزي وابن تيمية، يقول ابن الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: «إنه كان متشيعاً، ومثله لا يوثق بروايتـه، فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوى شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح منكر»، ونقل ابن شاكر في كتابه عيون التواريخ: «أن الشيخ شمس الدين الذهبي قال: رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله، ويستهول ما يأتي به»[4].

وبـاقي رجـال هذا الخبـر يجمعهم الصـدق والثقة، فالزبيري صدوق وكذلك المسيبي وعمـر بن شبـة، ومن الثقـات الحـرمي بن أبي العـلاء، الـزبير بن بكـار وهارون بن عبد الله الزهري.

محاورة ابن الأزرق لابن عباس دراية

ويضعف هذه المروية تعارضها مع بعض النصوص الشرعية والأحكام الفقهية، بمعنى أن النصوص النقلية والعقلية تخرج هذه المروية من دائرة القوامة والصدق إلى الوضع والنحل.

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/٥٦٨ تاريخ بغداد ٥/ ٣٢٧ـ٣٣٠.

(٢) تهذيب الكمال: ١/٥٦٣ التقريب: ١/٣٤٢.

(٣) ميزان الاعتدال: ٤/٦٨٢.

(٤) تاريخ بغداد: ١١/ ٣٩٨ـ٤٠٠ ومقدمة تحقيق الأغاني ١/١٩.

فقد أخرج الإمام الطحاوي عن الإمام التابعي عامر بن شراحبيل الشعبي أنه كان جالساً مع بعض الصحابة فكانوا يتناشدون الأشعار، فوقف عليهم عبد الله بن الزبير فقال: في حرم الله وحول الكعبة تتناشدون الأشعار؟ فقال رجل منهم: يا بن الزبير إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما نهى عن الشعر إذا أتيت فيه النساء، وازدري فيه الأموات»[1].

ومن نافل القول إن ليلة ذي دوران التي قضاها عمر بن أبي ربيعة مع نعم أتى فيها على ذكر المتعة التي نالها، والمحاسن التي ظلت ماثلة في نفسه[2]:

ولـيلة ذي دوران جشـمـني الـسُّـرى ... وقـد يَجْشَمُ الهـولَ المحبُّ المُغَـرَّرُ
... فبت قرير العين أعـطيت حاجتي ... أُقَـبِّـلُ فاهـا في الـخـلاء فأكـثـر
... هنيئـاً لأهـل العـامـرية نشرها الـ ... لذيذ وريّاهـا الـذي أتـذكـر

والمذموم من الشعر عند أهل العلم هو ما كان فيه فحش أو خنا أو لمسلم أذى، فهو والمنثور من القول سواء كما يقول الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، ولا يحل إنشاده في مسجد ولا غيره، كمنثور الكلام القبيح ونحوه فيما يرى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي[3].

والمباح إنشاده من الشعر في الحرم المكي أو المدني أو في المساجد هو شعر الدعوة الإسلامية وما يتصل بها من دفاع عن الدين، وما يتعلق بهذا الدفاع من لوازم يفرضها، مثل هجاء أعداء الله ومجادلتهم وتعريتهم الفكرية والاجتماعية. فقد أخرج النسائي بسنده عن أنس في باب إنشاد الشعر في الحرم قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في عمرة القضاء، وعبد الله بن رواحة آخذ بِغَرْزه يرتجز:

---

(١) الطحاوي: شرح معاني الآثار ٤/٩٧.

(٢) انظر عمر بن أبي ربيعة: ديوانه ٩٥-١٠١.

(٣) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٤٧، ١٥٠.

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يابن رواحة بين يدي رسول الله وفي حرم الله عز وجل تقول الشعر؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»[1].

والاجماع منعقد عند أكثر الأئمة الفقهاء على كراهية التشبيب بامرأة مما لا يحل وطؤها، قال بذلك الإمام الشافعي إذ ردّ شهادة من شبّب بامرأة معينة له، وكذلك فعل الإمام مالك، أما الإمام أحمد بن حنبل فقال: إنما يكره من الشعر الهجاء والرقيق الذي يتشبب فيه بالنساء فتهيج له قلوب الفتيان، فأما ما سوى ذلك فما أنفعه»[2]، ويقول الإمام ابن قدامة في المغني: «وليس في إباحة الشعر اختلاف... فما كان من الشعر يتضمن هجو المسلمين والقدح في أعراضهم، أو التشبيب بامرأة معينة والإفراط في وصفها، فقد ذكر أصحابنا ـ الحنابلة ـ أنه محرم، وهذا إن أريد به أنه محرم على قائله فهو صحيح، وأما على راويته فلا يصح، فإن المغازي تروي قصائد الكفار الذين هاجوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكر ذلك أحد»[3].

وشعر عمر بن أبي ربيعة بيّن الدلالة على المعصية، وإن تعددت الروايات على عفافه فعلاً عمّا يقوله كذباً، يقول أبو المقوم الأنصاري: «ما عصى الله بشيء كما عصي بشعر بن أبي ربيعة»، وهو قول ابن أبي عتيق: «ما عصى الله بشعر قط كما عصي بشعر ابن أبي ربيعة» وهذا الحكم الوصفي العام لشعره قدح وإنكار له، لما فيه من فحش، وابن عباس رضي الله عنه أعلم الناس بجمال التعبير وتهذيبه في أداء الفاحش من القول والفعل حيث يقول: «إن الله حيّ يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة»[4]

---

(١) النسائي: سنن النسائي ٥/ ٢٠٢-٢٠٣ والترمذي ٥/١٢٧ حديث رقم ٢٨٤٧.

(٢) المظفر بن الفضل العلوي: نضرة الإغريض في نصرة القريض ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) ابن قدامة: المغنى ١٢/٤٤.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٥٣.

ولا أظن أن رائية عمر تقع في إطار هذا التهذيب، إذ أنها حديث عن مجون صريح وخلاعة وفجور، بل إن عمر في نظر ابن عباس رجل باطل كما تدل على ذلك الرواية التي تقول: «قيل لابن عباس ولد عمر بن أبي ربيعة في الليلة التي مات فيها عمر، فقال ابن عباس: «أي حق رفع وأي باطل وضع»[1].

وعلى ذلك يبدو غريباً كل الغرابة توقف ابن الأزرق عند قول عمر بن أبي ربيعة:

رأت رجـلاً أمـا إذا الشمس عارضت فيضحى وأمـا بالعشي فيخصر

وذلك لأسباب عدّة:

أولها: أن ابن الأزرق احتج بالبيت دليلاً على السفاهة التي استمع إليها ابن عباس وفي القصيدة ما هو أشد منه سفاهة وخلاعة، وهو الأجدر بالإبانة والتحديد في الدلالة والبرهان.

ثانيها: كيف يطلب ابن الأزرق شاهداً لقوله تعالى: ﴿وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وهو قد سمعه بل حفظه، وسخر بقائله وتفكه به إذ غيّر رواية الفاظ البيت قصداً لذلك «فيخزى وأما بالعشي فيخسر».

وثالثها: ينازع في صدق هذه الرواية نسبة التغيير في البيت إلى عبد الله بن الزبير الذي كان إذا سمع بيت عمر قال لا بل:

فيخزى وأما بالعشي فيخسر[2].

وإذا كانت مسائل ابن الأزرق غير سالمة من الوضع على أيدي بعض اللغويين طلباً للشاهد الشعري في الاحتجاج للغة القرآن، فإن هذه المحاورة غير بعيدة عن ذلك، وقد وجد لها الواضع علة وقصداً في الترويح عن النفس باللهو بعد أن أضجرها الجد وأملّها طلب العلم.

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٩١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٤/٧٣.

وغير منكـرة فائـدة الاستـطراد والخروج بالنفس من باب الجد إلى باب اللهو تجـديداً لهـا وتنشيطاً لهمتها، وقد يُتَّخذ مصدراً لذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا حنظلة ساعة وساعة» وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أجمـوا هذه القلوب فإنها تملُّ كما تمل الأبدان»، وما يروى عن أبي الدرداء أنه قال: «إني لأستجم نفسي ببعض الباطل ـ أي اللهو الجائز ـ لأنشط على الحق» أو «مخافة أن أحمل عليها ما يملُّهـا» لكن الواجب التنبيه إليه أن يكون مجال اللهو والباطل جائزاً مباحاً؛ لأن «أنواع الباطل لا يمكن حصرها، لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلّا بالاقتصار على ما يعني من مهمـات الـدين والدنيا، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحرث: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها من سخطه إلى يوم القيامة» وهذا الخوض بالباطل هـو وراء تداول الفحش ونظائره من السوء[1].

حقاً أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كما جاء وصفهم في الحديث الشريف «لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه سلم متحزقين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أُريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون» فهم أصحاب موقف إيجابي يجعل اللهو بالباطل يقف عند حدودٍ لا يتعد فيها اللاهي حدود شرع الله أمراً ونهياً في تجديد نشاط النفس والترويح عنها.

وكان المتكلمون أكثر التيارات الفكرية الدينيّة اهتماماً بشأن الترويح عن النفس بالباطل، ترويجاً له، ودفاعاً عنه، ويعد الجاحظ علماً في هذه القضية، ألح عليها وأجـرى في تآليفـه التـطبيق لهـا، ولم يكن المبـرد بعيداً عن منهجية الجاحظ في

---

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١١٦.

الاستطراد، وقد تتلمذ عليه، وإن عفّ عمّا جرى فيه الجاحظ من ذكر أخبار وطرائف ماجنة، وعلى ذلك يغلب على الظن أن تكون محاورة ابن الأزرق وابن عباس في رائية عمر مما نبت وترعرع في بيئة المتكلمين.

بقي أن نشير إلى التقاء رواية المبرد وأبي الفرج بالإشادة بحافظة ابن عباس وروايته للشعر، وهو أمر لا ريب فيه، لا يلغي اختلاف الروايتين بالتنويه بعلم علي تارة «قال ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر بن الخطاب، ولا أعلم من علي» والتنبيه على ذكائه تارة أخرى «فقال بعضهم: ما رأيت أذكى منك قط، فقال: لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام» وتذييل الروايتين بهذين التقريرين لا وجه له[1]، فهل يحمل ذلك على القول إن بعض الفرق الإسلامية من زبيرية وشيعة قد وجدت في صناعة هذا الخبر وسيلة لرفع شأن علي بن أبي طالب، والانتقاص من شأن نافع؟!

وخلاصة القول في محاورة نافع بن الأزرق وابن عباس أن هذه الرواية ساقطة سنداً، متناقضة متناً مع النصوص النقلية والأحكام الشرعية، لكن ذلك لا يلغي الاستمتاع بشعر الغزل في الأطر التي حدد أبعادها كماً وكيفاً، وتنظيراً وتطبيقاً، بعض الفقهاء الأدباء، وبعض النقاد مثل الشافعي، الجاحظ، ابن قتيبة، الحصري القيرواني، ابن الأنباري.

الإمام الشافعي والامتاع الأدبي:

وكان الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) من الذين فقهوا موقف الإسلام من الشعر فقهاً **مميزاً انعكس على إنشائه الشعر وإنشاده، إذ يقول: «الشعر كلام حَسَنُه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، غير أنه كلام باق سائر، فذلك فضله على سائر الكلام، فمن كان من الشعراء لا يُعْرَف بنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك ولا**

---

(١) انظر د. أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي ص ٣٧٤.

بأن يمدح فيكثر الكذب، لم تُردَّ شهادته»[1].

فمعادل الشاعر المسلم عند الشافعي أن يكون مقبول الشهادة «لم ترد شهادته» ولذلك متطلبات قضائية في الشرع من البعد من أسباب الفسق وخوارم المروءة، ولوازم اجتماعية في الشعر بألا يعرف بذم المسلمين وإيذائهم، وألا يشهر بالكذب، فالإكثار من الإيذاء والشهرة بين الناس به كذباً حدّان فاصلان بين الشاعر المسلم وغيره من الفساق والمجان[2].

فمن غلبه الهجاء بنقص المسلمين وانتهاك حرماتهم بالغزل الماجن، وكثر عنده المدح الكاذب فذلك شاعر فاسق مرفوض الشهادة مرفوض الشعر. أما من أغرته بعض الأحوال، وأغواه الشيطان ببعض الأقوال، فهو من الزلل واللمم ما دام مفارقاً له، غير معروف به[3].

وهذا التحديد الذي يقبس من فهم متميز للآيات الأخيرة من سورة الشعراء، غير ملغٍ لمجالات القول الأخرى من غزل تتنفس فيه عواطف الشاعر بصدق إلى وصف غير مضار، أو فخر لا يعين على الظلم، أو ما إلى ذلك من ألوان ممتعة مرّوحة عن النفس.

وفي عناية الشافعي بالشعر راوياً، أو ما أُثر عنه من أبيات منشداً أو منشئاً، ما يوضح موقفه من الإمتاع الأدبي.

فقد أقام الشافعي على قراءة العربية وأيام الناس عشرين سنة، وقال ما أردت بهذا

(١) الشافعي: كتاب الأم ٦/٢١٢ مصور عن طبعة بولاق.

(٢) شمل الشافعي بهذين الحدين أهل الغناء أيضاً، إذ الشعر والغناء من باب واحد فقال: «وهكذا الرجل يغشى بيوت الغناء، ويغشاه المغنون، إن كان لذلك مدمناً، وكان مشهوداً عليه، فهو بمنزلة سفه ترد به شهادته، وإن كان ذلك يقل منه لم ترد شهادته، لما وصفت أن ذلك ليس بحرام بيِّن» (كتاب الأم ٦/٢١٠).

(٣) انظر مصطفى عليان: مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ص ١٣.

إلّا الاستعانة على الفقه[1]، وجمع إلى هذا الحفظ دراية ومعرفة بمعاني العرب في أشعارها، «قال الشافعي: وقد كان من العرب من يقول: حمام الطائر: ناس الطائر. أي يعقل عقل الناس. وذكرت العرب الحمام في أشعارها فقال الهذلي:

وذكـرنـي بكـاي على تليد حمـامـة «مـرّ» جاوبت الحمـاما

وقال الشاعر:

أحس إذا حمـامـة بطن وج تغـنّـت فوق مرقـاة حنـينـا

وقال جرير:

إني تذكـرني الـزبير حمـامـة تدعـو بمجمـع نخلتين هديلا

قال الشافعي: مع شعر كثير قالوه فيما ذهبوا فيه إلى ما وصفت من أن أصواتها غناء وبكاء معقول عندهم، وليس ذلك في شيء من الطائر غير ما وقع عليه اسم الحمام»[2].

وغدت حافظة الشافعي بما جمعت مصدراً موثوقاً في رواية شعر الصعاليك وشعر الهذليين وشعر مجانين العرب وشعر ذي الرمة وغيرهم، فالأخبار تدل على أن محفوظ الأصمعي الراوية مقرؤ على الشافعي، مسند عنه، قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الفضل بن أبي نصر، قال: سمعت منصور بن محمد بن الحنفي يقول: سمعت أبا عمرو الزاهد يقول: سمعت أبا موسى الحامض يقول:

قال الأصمعي: قرأت على الشافعي الشعر»[3].

وأورد البيهقي بعض الأخبار التي تعزز هذه القراءة أو الرواية، وتبيّن أغراضه واتجاهات معانيه، ووثق ذلك بأسانيد متنوعة الطرق، ففي شعر الهذليين قال

(١) البيهقي: مناقب الشافعي ج٢/٤٢.

(٢) المصدر ذاته ج ٢/ ٥٥ـ٥٦.

(٣) المصدر ذاته ج ٢/ ٤٥.

البيهقي: «أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي، أنبأنا علي بن عمر الحافظ ببغداد، حدثنا عمر بن الحسن بن علي القراطيسي حدثنا ابن أبي الدنيا، حدثنا عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي قال:

قلت لعمي يا عمّاه، على من قرأت شعر هذيل! فقال: على رجل من آل المطلب يقال له: محمد بن إدريس»[1].

والزبير بن بكار عمدة رواية أبي الفرج الأصفهاني في الأغاني يسند روايته لشعر الهذليين أيضاً إلى عمه مصعب بن الزبير قال البيهقي: «أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين الدينوري، حدثنا الفضل بن الفضل الكندي، حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا ابن بنت الشافعي، قال:

سمعت «الزبير بن بكار» قال: أخذت شعر هذيل ووقائعها عن عمي «مصعب» فسألته عمن أخذها؟ فقال: أخذتها من محمد بن إدريس الشافعي حفظاً»[2].

وفي شعر هذيل إمتاع عظيم في معانيه ومضامينه، وإمتاع وافر جم في خصائصه الفنية والأدائية، حيث تميز هذا الشعر بفخره القوي ورثائه الحزين، ووصفه للحيوان وتمثيله لحركاته وهيئاته، في أساليب منوعة من القص والتشبيه والتصوير[3].

وروى الأصمعي كذلك شعر الصعاليك أو جانباً منه عن الشافعي، قال البيهقي: «حدثنا زكريا الساجي، قال: سمعت جعفر بن محمد الخوارزمي يحدث، عن أبي عثمان المازني قال: سمعت الأصمعي يقول: قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة.

قال زكريا: فذكرت ذلك للرياشي فقال ما أنكره. قرأتها على الأصمعي:

---

(١) البيهقي: مناقب الشافعي ج ٢/٤٤.

(٢) المصدر ذاته ج ٢/٤٥.

(٣) انظر د. أحمد كمال زكي: شعر الهذليين ص ١٤٧ وما بعدها وص٢٢٧ وما بعدها.

أنشدنيها رجل من قريش بمكة، قال: والشنفرى رفيق تأبط شراً»[1].

وإذا كان مذهب الشاعر الاجتماعي والفني مذكراً بنظيره، موجباً لرواية شعر قرينة كالشنفرى وتأبط شراً، فإن حافظة الشافعي كانت طيّعة منظمة تعطي شعر الشاعر وتجود بشعر سميّه أيضاً. يقول البيهقي: «أخبرنا أبو عبد الله قال: قال أبو العلاء الأصبهاني الأديب: حدثنا الوليد بن أبان الأصبهاني، حدثنا محمد بن إسحاق الصنعاني قال:

سمعت الأصمعي يقول: قرأت شعر الشنفرى على علامة بمكة يقال له: محمد بن إدريس الشافعي، فأنشدني لثلاثين شاعراً أساميهم: عمرو»[2].

وشعر الصعاليك ممتع بما يترجم عن حياة فريق من الشعراء الجاهليين الذين فرض عليهم مجتمعهم نمطاً من العيش تدربوا فيه على قهر أنفسهم وضبطها من التهالك على الطعام والملذات، فزهدوا في الحياة ومباهجها من أجل تحقيق مثلهم في التعفف وعزة النفس وإباء الذل، فماز الصدق شعرهم، إذ نقلوا واقعهم المرير بكل نبضاته وعوراته[3].

وشعر الغزل العذري من الأنماط المروية عن الشافعي، فقد أخبر البيهقي بسنده عن محمد بن عبد الله بن الحكم المصري قال: سمعت الشافعي يقول: أروي لثلاثمائة شاعر مجنون»[4].

ولما كان الشافعي من أهل اللغة، تؤخذ عنه، إذ كان حجة فيها، فلا غرو إن وجدنا ذوقه الأدبي مميزاً للمذهب البدوي، موازناً بين شعرائه، ناقداً لشعرهم، فالمقدم لديه ذو الرّمة، حيث أخرج البيهقي بسنده عن محمد بن عبد الحكم قال:

---

(١) البيهقي: مناقب الشافعي ج ٢/٤٧، ٩٢. (٢) المصدر نفسه ج ٢/٤٥.
(٣) انظر محمد مصطفى هدارة: دارسات في الشعر العربي ج ١/ ص٧، ٩.
(٤) البيهقي: مناقب الشافعي ج ٢/٤٧.

«قال الشافعي ليس يقدم أهل البادية على شعر ذي الرمّة أحداً» وكان يقول في شعره: «شعر ذي الرمّة بعر غزال، ونقط عروس»[1] مدللاً على سرعة إمتاع شعر ذي الرمّة، وتعطف النفس عليه بالقبول والإيجاب والتأثر.

وللشافعي في شعر قريش بصر صائب بعيد عن التعصب لقرشيته التي ينحدر في أصوله منها، فقد أورد البيهقي في سنده عن محمد بن سعيد بن أبي مريم قال: سمعت الشافعي يقول: ليس لقريش كلها شعر جديد ـ أو قال شعر جيد، وأشعرها ابن هرمة ثم مروان بن أبي حفصة»[2].

ولهذه الأحكام علاقة حميمة بالنقد الأدبي، فالحكم على الشيء فرع تصوره، وتقويم الشعر حكم يحمل في أساسه التذوق الأدبي ثم تبرير الاستجابة الشعرية فيه وتعليلها، فإذا صادف هذا الذوق المعلل حكم أهل البصر بالنقد، ارتقت درجته، وعظمت قيمته.

يقول ابن سلام عن شعر قريش: «أشعار قريش أشعار فيها لين، فتشكل بعض الأشكال»[3] ويقول أيضاً: «والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا»[4]. فابن سلام لم يخرج عن دائرة تقويم الشافعي شعر قريش ونقده وإن اختلف منحى التعليل وأسلوبه.

وأما مروان بن أبي حفصة (١٠٥ ـ ١٨١هـ) فكان الأصمعي يدرجه في مدرسة الصنعة الشعرية التي عرفت من لدن الجاهلية إذ يقول عنه: «متكلف يشبه زهيراً

---

(١) المصدر ذاته ج ٢/٥٤ والشافعي يروي هذه المقولة عن أبي عمرو بن العلاء الذي كان يقول: إنما شعره (ذي الرّمة) نقط عروس: يضمحل عن قليل، وأبعار ظباء لها مشم في أول شمِّها ثم تعود إلى أرواح البعر» وكان يقول أيضاً ختم الشعر بذي الرمّة (انظر ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٢/٥٥١).

(٢) البيهقي: مناقب الشافعي ٢/١١٣.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٥. (٤) المصدر ذاته ١/٢٥٩.

والحطيئة»[1] وابن الأعربي يختم به الشعر[2] (شعر الاوائل الذي يحتج به). أما الشريف الرضي فيقول عنه: «هو أشعر أهل زمانه وطبقته، وأشعر شعراء أهله»[3].

وإذا كانت رواية الشافعي للشعر في بداية حياته ذات وظيفة محددة هي الاستعانة على الفقه وتقعيد أحكام الشريعة، فقد غدت في حله وترحاله ذات غايات نفسية، وأبعاد وجدانية إمتاعية، فقد قيل له: كيف شهوتك للأدب؟

قال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت الأذنان.

قيل: وكيف حرصك عليه؟

قال: حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته في المال.

قال: وكيف طلبك به؟

قال: طلب المرأة المضلّة ولدها وليس لها غيره[4].

بهذه الدقة التعبيرية جاء تصوير الشافعي لمتعته في سماع الأدب، وشغفه في طلبه، وإصراره على الإحاطة به، وفي أخباره ما يبلور ذلك ويجسده.

كان الشافعي إذا أصابه ملل الدرس في مصر دعا رجلاً يقال له «سرح الغول» لينـاظره ويذاكره، وكان عالماً باللغة والشعر، لا يقول أحد قصيدة إلا عرضها عليه ليصلحها له، فإذا قام سرح من هذه المناظرة قال: (يعني سرحاً): نحن والله نحتاج نستقبـل طلب العلم من اليوم[5]. ولما نزل عبد الملك بن هشام صاحب المغازي

---

(١) الأصمعي: فحولة الشعراء ص ٤٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٩/٤٣.

(٣) الشريف المرتضي: أمالي الشريف المرتضي ١/٥١٨.

(٤) البيهقي: مناقب الشافعي ٢/ ١٤٣-١٤٤.

(٥) المصدر نفسه: ج ٢/٥٤.

مصر، وكان علامة أهل مصر في الغريب والشعر اجتمع به الشافعي وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة[1].

وأخبر البيهقي بسنده عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: «قرأ على محمد بن إدريس الشافعي أشعار هذيل حفظاً، ثم قال لا تخبر بهذا أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا.

قال مصعب: وكان الشافعي يسمر مع أبي من أول الليل حتى الصباح لا ينامان»[2].

ولم تخل مسامرات الشافعي الأدبية ومناظراته الشعرية من مفاضلات ذوقية لما يعرض فيها من معان، يقول يونس بن عبد الأعلى: «كنت يوماً عند الشافعي فتذاكروا ما قيل في حسن القرى، ومحبة الضيافة، فذكروا أبياتاً للشعراء، فقال الشافعي: وأين أنتم عن قول بعضهم:

ويدل ضيفي في الظلام على القرى ... إشراق ناري أو نباح كلابي
حتى إذا واجهته فلقينه ... حَيَّيْنَه ببصابص الأذناب
وتكاد من عرفان ما قد عُلِّمت ... من ذاك أن تفصحن بالترحاب

وقول بعض الأعراب من الهذليين حيث يقول:

وإذا تأمل شخص ضيف مقبل ... متسربل سربال ليل أغبر
أومأ إلى الكوماء هذا طارقي ... نحرتني الأعداء إن لم تنحرى[3]

ويمكن تمييز اتجاهين فنبيّن فيما كان الشافعي ينتخب من مروياته الكثيرة، أولهما: شعر الصنعة المحكك وثانيهما: شعر التجارب الوجدانية الرقيق الموجز.

---

(١) انظر السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: ١/٢٥٤.

(٢) البيهقي: مناقب الشافعي ج ٢/٤٦.

(٣) المصدر نفسه ج ٢/١٢٤.

فمن الدلائل على تحقق الاتجاه الأول لدى الشافعي ما أورده ابن أبي حاتم في كتابه أنه كان يتمثل بأشعار طفيل بن مالك الغنوي، ومما تمثل به قوله[1]:

جزى اللهُ عنّا جَعْفَراً حين أُزْلِقَتْ ... بنا نَعْلُنا في الواطئينَ فَزَلَّتِ
هُمُ خَلَطونا بالنُّفوسِ وألجؤوا ... إلى حُجُراتٍ أَدْفَأَتْ وأَظَلَّتِ
أَبَوْا أن يَمَلُّونا؛ ولو أن أُمَّنا ... تُلاقي الذي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ
وقالوا هَلُمُّوا الدَّارَ حتى تَبَيَّنوا ... وتَنْجلَى الغَمَّاءُ حتى تَجَلَّتِ
ومن بَعْدما كُنَّا لِسَلْمَى وأهلِها ... عَبيداً وَمَلَّتْنا البلادُ ومُلَّتِ

وطفيل أوصف العرب للخيل، وسمي المُحَبِّر لتحسينه شعره، وهذه الأبيات مما تخلب معانيها للطافة الكلام فيها[2].

وقد سبقت الإشارة إلى إعجاب الشافعي بشعر مروان بن أبي حفص وتفضيله له على سائر أهل قريش عدا ابن هرمة.

ومن الأمثال السائرة أنشد الشافعي[3]:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكونُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكونُ

وقال حرملة كثيراً ما سمعت الشافعي يتمثل بهذين البيتين[4]:

لعمرك ما الرزية هدمُ دار ... ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد قِرْمٍ ... يموت بموته بشرٌ كثيرُ

---

(١) ابن أبي حاتم الرازي: آداب الشافعي ومناقبه ص ٢٧٧ـ٢٧٨.
(٢) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٨٦.
(٣) البيهقي: مناقب الشافعي ٢/١٠٥ وانظر الخطابي: العزلة ص١٦١.
(٤) المصدر نفسه ٢/١٠٥ والأمالي ١/٢٧٢.

«والمثل لا يشيع على ألسنة الناس إلا بسبب جمال العبارة، ورصانة المحتوى، ودلالته على تجربة إنسانية، في إيجاز رائع وبساطة متناهية»[1] على أن بين المثل والحكمة رحماً موصولة في الدلالة على درجة من الوعي الفكري والنظرة المتعمقة لمعاني الحياة وإحكام الصنعة، خاصة إذا أتى أحدهما بصورة الآخر.

أما نماذج الشعر الوجداني الذي دار عليه تمثل الشافعي في سمره ومناظراته، فهو الشعر الذي يحكي حاله، وتتهدهد فيه آماله، ويستوعب عواطفه، وشؤون حياته، ففي التعزي عن فراق الابن يتمثل بهذا البيت[2]:

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له رزية مال أو فراق حبيب

ويحكي شعر امرىء القيس حاله في الغربة فيتثمل به[3]:

أجارتنا إن الخطوب تنوبُ وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب
فإن تصلينا تسعدي بمودتي وإن تقطعينا فالغريب غريب

ولشعر الحنين إلى الوطن علوق نفسي خاص عند الشافعي، فهو لا يفتأ يردده، فيجد فيه متنفساً لعواطفه، وغذاء لأحاسيسه، ولذلك فهو ينشد متمثلاً[4]:

سأضرب في الآفاق شرقاً ومغربا وأكسب مالاً أو أموت غريب
لئن تلفتْ نفسي فلله درّها وإن سلمت كان الرجوع قريب
سقى الله أرض العامري غمامة وردّ إلى الأوطان كلَّ غريب
وأعطى ذوي الحاجات فوق مناهم وأمتع محبوباً بقرب حبيب

---

(١) د. محمد هدارة: دارسات في الشعر العربي ١/٥٧.

(٢) المصدر نفسه ٢/٨٩.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٢-٨٣ وانظر نموذجاً آخر في كتاب العزلة في الناس والحياة ص١٦٢.

(٤) المصدر نفسه ٢/٨٥.

ويجد الشافعي في الشعر التأملي صورة عقله ونزع وجدانه، وبغية إمتاعه، فهو يرويه مستعيناً على التدبر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، فقد أسند البيهقي عن عبد العزيز بن يحيى الكناني إنشاد الشافعي لسفيان بن عيينة قوله[1]:

كم من قوي قوي في تقلبه ... مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
ومن ضعيفٍ ضعيف العقل مختلط ... كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الاله له ... سرّ خفيٌّ علينا ليس ينكشف

ومن ذلك ما أنشده لأبي العتاهية[2]:

فيا عجبي كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ؟!
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والإمتاع الأدبي عند الشافعي ظاهرة تقوم على توازي الاتجاه وتوحد الغاية في المطالب الفنية من الإنشاء (الإبداع) والإنشاد (الرواية)، فلا فرق بين ما ينشؤه الشافعي معبراً عن دفين حسه، ونبض وجدانه، وما يردده من شعر في وحدته مستمتعاً، أو ممتعاً به جلساءه؛ لأن القاعدة الارتكازية التي تقبس منها رؤيته الفكرية والنفسيّة واضحة شاملة مطردة، لا اضطراب فيها ولا عوج ولا تناقض، فحياة الرجل وفكره وشعره أبعاد متراحمة ومتلاحمة في مذهب منهجي متكامل. ولبيان ذلك نعرض لمثال من شعر الغزل جرت معانيه بين الإنشاد والإنشاء.

فمن الأبيات التي كان الشافعي معجباً بها، وتنبىء عن تصوره للغزل وحديث الحب، قول الشاعر[3]:

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٩١.
(٢) البيهقي: مناقب الشافعي ٢/ ١٠٩.
(٣) المصدر ذاته ٢/ ٩٨-٩٩.

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ
فإني وجدت الحبَّ في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهبُ

ومما قاله الشافعي في ذلك[1]:

يا كاحل العين بعد النوم بالسهر ... ما كان كحلك بالمنعوت للبصر
لو أن عيني إليك الدهر ناظرة ... جاءت وفاتي ولم أشبع من النظر
سقياً لدهر مضى ما كان أطيبه! ... لولا التفرق والتنغيص بالسفر
إن الرسول الذي يأتي بلا عِدَة ... مثلُ السحاب الذي يأتي بلا مطر

ولا يجد الباحث بين هذين النصين فوارق جوهرية، إذ المقطوعتان بوح عن مشاعر الرجولة غُير المتبذلة في الحديث إلى المرأة المحبوبة، ولئن كانت المقطوعة الأولى ألصق بغزل القدرة والتمكن وفحولة الرجال في معاملة صدود المرأة بالنصح والوعظ، فإن المقطوعة الثانية غير مباينة حدَّ الاعتدال في وصف المشاعر المعجبة بجمال كَحَل العين بعد النوم والسهر، والإنابة عن الرغبة في التمتع بالمحبوب باشباع النظر إليه، وإظهار الأسف لانقطاع الوصال بالتنغيص والسفر.

وأياً كان الفرق التصوري في التعبير عن الإحساس فإنه لا يجافي قاعدة المنهج التي ينطلق منها الشافعي التي حددها بقوله: «ومن شبب فلم يسمّه أحداً لم ترد شهادته، لأنه يمكن أن يشبب بامرأته وجاريته، وإن كان يسأل بالشعر أو لا يسأل به فسواء»[2].

ولما كانت طبيعة الامتاع ومنهجه عند الشافعي موسومة بالتوحد والانسجام بين ما يرويه ويقرضه من الشعر، فقد فرض ذلك تجانساً وتطابقاً بين شعره وشعر غيره من الشعراء، خاصة في التوجه التعبدي والوعظي في الشعر، فمن المعاني المشتركة التي

---

(١) المصدر ذاته ٢/٩٩.

(٢) الشافعي: الأم ٦/٢١٢.

تنسب إليه وإلى غيره قول الإمام علي رضي الله عنه:

صن النفس واحملهـا على ما يزينهـا تعش سالـمـاً والـقـول فيك جميل

ومما روي له ولأبي نواس:

فلمـا قسـا قلبي وضـاقـت مذاهبي جعلت رجـائي نحـو عفـوك سلمـا

ومما نسب إليه وإلى أبي العتاهية:

فيا عجبي كيف يعصي الالـه أم كيف يجحـده الـجـاحـد

وبذلك يتقوى الظن بأن رواية الشعر للإمتاع عند الشافعي مباحة إباحة مطلقة إذا لم يلم الـراوية بخـوارم حسن الكلام ومعاضد قبحه من القصد إلى الباطل بتزيين الفاحشة، أو الترغيب في الرجس، أو الإعانة على الظلم، أو قذف عـرض بالابتهار.

* * *

ومذهب الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥هـ) إباحة المتعة بالرفث من القول والسخيف من الشعر أو الرقيق الماجن، ويتعلل لذلك بأن ألفاظ الرفث «إنما وضعت ليستعملها أهل اللغـة، ولـو كان الرأي ألا يلفظ بها ما كان لأول كونها معنى، ولكان في التحريم والصون للغة العرب أن ترفع هذه الأسماء والألفاظ منها»[1].

ويطيل الجـاحظ الاحتجـاج لذلـك بالمتـداول من هذه الألفـاظ في مقـولات الصحابة رضي الله عنهم دفعاً لمن يظهر التنسك والتخشع والتقشف عن ذكرها تصنعاً للتقـوى «وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا التصنع، ولو علم أن عبد الله بن عباس أنشد في المسجد الحرام وهو محرم:

وهـن يمـشين بنـا هميسـاً

فقيل له: إن هذا من الرفث! فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقول علي

---

(١) الجاحظ: رسائل الجاحظ ـ كتاب مفاخرة الجواري والغلمان ج ٢/٩٢.

رضوان الله عليه ودخل على بعض أهل البصرة ـ ولم يكن في حسبه بذاك ـ فقال: من في هذه البيوت؟ فقال: عقائل من عقائل العرب. فقال: «من يطل أير أبيه ينتطق به» فعلى عليٍّ في التنزه يُعَوَّل.

وقول أبي بكر رضي الله عنه لبديل بن ورقاء يوم الحديبية وقد تهدد رسول الله صلى الله عليه وسلم «عضضت بَظر اللات، أنحن نخذله».

وقول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه: «وأنت يا ابن مقطعة البظور ممن يكثّر علينا» وحديث مرفوع: «من عذيري من ابن أم سباع مقطعة البظور» ولو تتبعت هذا وشبهه وجدته كثيراً.

ولو كان ممن يتصون ويتقشف علم قول امرأة رفاعة القرظيّ تجبهه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير محتشمة: إني تزوجت عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب، وكنت عند رفاعة فطلقني، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على التبسم حتى قضت كلامها فقال: «تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي من عُسَيلته ويذوق من عسيلتك» لعلم أنه على سبيل التصنع والرياء»[1].

وإذا كان وزن الشعر لا يزيل الكلام عن جهته من الرفث والمجون، ولا يبتعد به عن منزلته من التنزه والترويح، «وإذا وجب أن الكلام غير محرم، فإن وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلة من العلل»[2].

وعلى ذلك فإن الاستمتاع بهذا اللون من الكلام، وتحصيل الغاية منه لا يكون إلا بروايته بألفاظه دون تغيير أو تحسين «فإذا سمعت بنادرة من من نوادر العوام، وملحة من مُلَح الحُشوة والطَّغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإغراب، أو تتخير لها لفظاً حسناً،

---

(١) المصدر نفسه ج ٢/ ٩٣-٩٤. وهذا الحديث مروي في البخاري (كتاب الطلاق وفي كتاب اللباس) وفي صحيح مسلم أيضاً حديث رقم ١٠٥٦.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ (رسالة القيان) ج ٢/ ١٦٠.

أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويُذهب استطابتهم إياها، واستملاحهم لها»[1].

والإمتاع بهذا اللون من الكلام شعراً أو نثراً، لا يخلو من ضوابط تقيّده، وأحوال تنظمه، وأولها: الاستعانة بالإمتاع للثبات على الحق أو تحصيله التفاتاً إلى مأثورات مروية عن أبي الدرداء أنه قال: «إني لاستجم نفسي ببعض الباطل مخافة أن أحمل عليها من الحق ما يُملُّها»[2] وقد روي عن علي بن أبي طالب: «العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه» وروي عن الشعبي أنه قال: «إن القلوب تمل كل تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة»[3].

وعلى الرغم من وضوح الإحسان في اتجاه هذه المأثورات في طلب اللهو (فخذوا من كل شيء أحسنه، فابتغوا لها طرائف الحكمة) إلا أن الجاحظ الذي يقصد من ذلك إلى التخفف من ثقل الحق يستوي لديه اللهو الحسن وغير الحسن ما دامت الغاية متوحدة، إذ يقدم لباب من اللهو بقوله: «وسنذكر لك باباً من السخف وما نتسخَّفُ به لك، إذ كان الحق يثقل ولا يخف إلا ببعض الباطل»[4].

وثانيها: مناسبة الحال بأن يكون موضع الحديث مسعفاً للخوض في الضحك والفكاهة، وداخلاً في باب حد المزح يقول الجاحظ: «وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وفكه، وداخل في باب حد المزح، فأبدلت السخافة بالجزالة انقلب عن جهته، وصار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها... وقد أصاب كل الصواب من قال لكل مقام مقال»[5].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٤٦.

(٢) في رواية اللسان «وإني لاستجم قلبي بشيء من اللهو لأقوى به على الحق».

(٣) الجاحظ: رسائل الجاحظ (رسالة مفاخرة الجواري والغلمان) ج ٢/ ٩١-٩٢.

(٤) الجاحظ: الحيوان ٥/١٧٨.

(٥) الجاحظ: رسائل الجاحظ (رسالة مفاخرة الجواري والغلمان) ج ٢/ ٩١، ٩٣.

وثالثها: أن يكون المستمع ذا خبرة بأنواع الكلام، متمرساً بأنماط الفنون، جدّها وهزلها، رصينها وسخيفها «ومن كان صاحب علم ممرناً موقحاً[1]، إلف تفكير وتنقيب ودراسة، وحلف تبيُّن، وكان ذلك عادة له، لم يَضره النظر في كل فن من الجد والهزل، ليخرج بذلك من شكل إلى شكل، فإن الأسماع قد تمل الأصوات المطربة، والأوتار الفصيحة، والأغاني الحسنة، إذ طال ذلك عليها»[2].

وكأني بالجاحظ إنما شرط ذلك قصداً إلى القول بأن استواء العقل وصقله بالدراية يظل صاحبة بمنجاة من الانحراف عن الجادة بما يستمتع به، على العكس تماماً ممن كان بعيداً عن الدراية، قليل الخبرة، بسيط التجربة، فإن الإمتاع لديه يفتقد الغاية، ولا يقف به عند حد أو نهاية.

* * *

وترخص ابن قتيبة ت (٢٧٦هـ) ـ وهو من علماء السلف ـ في رواية ما كان رفثاً؛ لخروجه عن حدود الإثم، وفرّق بين روايته وبين ما يحرم من شعر الفرزدق في الهجاء وقذف المحصنات، فيقول: «وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة، فلا يحملنك الخشوع والتخاشع على أن تصعر خدك، وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا توثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب، وأكل لحوم الناس بالغيب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهنِ أبيه ولا تكنوا»، وقال أبو بكر الصديق لبُديل بن ورقاء حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء لو قد مسهم حرّ السلاح لأسلموك: «اعضض ببظر اللات، أنحن نسلمه!»... وليس هذا (الرفث) من شكل ما تراه في شعر جرير والفرزدق لأن في ذلك تعيير وابتهار في الأخوات والأمهات وقذف المحصنات الغافلات، فتفهم الأمرين، وافرق بين الجنسين»[3].

---

(١) الموقَّح: الذي أصابته البلايا فصار مجرباً.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ (رسالة مفاخرة الجواري والغلمان) ج ٢/ ٩١.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ المقدمة ص ل ـ م.

وأدرك ابن قتيبة بترخيصه رواية هذا اللون من الشعر، النزوع النفسي نحوه وميل الطبائع الفطري إليه، وعلى الرغم من مباعدته بين ذلك والمساس بصلاح المرء ودرجة تقواه، إلاّ أنه لم يترك رواية الرفث مطلقة غير مقيدة، بل جعل الرخصة فيه محدودة بالقليل العارض، وبالرواية التي ينقص من رونقها الحكاية دون النص المباشر، ويذهب بجاذبيتها وجمالها التعريض دون التصريح، يقول: «ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك على كل حال، وديدنك في كل مقال، بل الترخص مني فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها، تُنَقِّصها الكناية، ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجيّة، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت، وثلموا أديانهم وتورعت»[1].

وابن قتيبة بذلك يبلور قيداً جديداً في الاستمتاع بالرفث والمجون، حيث حدد ذلك بالقليل المحدود بالمناسبة العارضة دون الديمومة والديدن الذي يحيل الإمتاع إلى لهو شاغل، ومعنى ذلك أن قبول ابن قتيبة للرفث وما أشبه لا يحرر الوسيلة من المبدأ ولا يجعل الشكل متفلتاً من القاعدة الأساس في الالتزام العام برفض المجون والرفث إذا كان طاغياً أو مجاوزاً حجمه المقدر في حياة الإنسان.

والتزم ابن قتيبة الدقة في تطبيق هذا المنحى في رواية الرفث من القول والفاحش من الشعر، فمنح منهجه في رواية الشعر القوامة والاعتدال خاصة فيما انتخبه من ذلك في باب (كتاب) النساء[2]، فهو إلى الظرف والطرائف والفكاهة أقرب منه إلى السوء والإفحاش، إذ «لا يستغني أهل الأدب وأولوا الأرب، عن معرفة ظريف المضحكات، وشريف المفاكهات، إذا لاحظوا ظريفاً، أو مازحوا شريفاً، فقد قال الأصمعي: بالعلم

---

(١) المصدر نفسه ج ١ ص م.

(٢) انظر عيون الأخبار: قول أعرابي في باب العُجُز والمشايخ ٤/٤٤ وقول الفرزدق في باب الزنا والفسوق ٤/١٠٧.

وصلنا، وبالملح نلنا»[1].

* * *

وسلك الحصـري القيرواني سبيل ابن قتيبـة بالاستمتاع بالرفث والفاحش من القول من غير حرج، لأنها نوادر مرتبطة بالترويح والفكاهة «فما مرّ بك من هذه النوادر فلا تنظر إليها نظر المنكر، فتعرض عنها صفحاً، . وتطوي دونها كشحاً، إذا وقعت فيها كلمة قذف أو لفظة سخف»[2].

ولا يحسن تغيير مثـل هذه الألفـاظ لواذاً بفعل بعض التابعين واقتداءً بهم في الكناية عن بعض المواطن مما لا يستحب ذكره، كقول عمر بن عبد العزيز «عرض لي دُمّل تحت يدي فآلمتني» ولم يقل تحت إبطي، وكان الحجاج على قبح أفعاله، وسوء أحواله، يتنزه عن أن ينطق بلفظة سخيفة كقوله «لو خبأته تحت ذيلك لم يكن بد من إخراجه وإنما أراد أن يقول تحت إستك» لأن في تغيير الراوي لهذه الألفاظ عدواناً على أصـالة الإمتاع، وخروجاً على حدود الملح وكينونتها وغايتها «فليس في كل موضع ـ أعزّك الله ـ تحسن الكنايات عن لفظ فحش، ولا بكل مكان يجمل الإعراض عن معنى وحش. . . ولـو كنت هنـا إنما آتي بما فيه ركانة وأصالة، دون ما فيه سخافة ورذالة، لأزال عن المِلَح اسمها، وارتفع عنها وسمها، وخرجت عن حدودها، وأفلتت من قيودهـا، ولا بد من توشيحـه بلطائف من الجـد، وظـرائف من القصد، تتعلق بأغصانه، وتتشبث بأفنانه، ليكون استراحة للناظر، وإجماماً للخاطر، كما يمل الجد فيدخل فيه الهزل، وكذلك يملّ الرقيق فيحتاج إلى الجزل»[3].

وثمة فرق بين الاستمتاع بالنوادر وما تحويه من ألفاظ القذف أو السخف وبين المبتـذل من الألفاظ، والقبيح من الدلالات، إذ الكناية في المبتذل أوجب، وتخير اللفظ الحسن عن النطق بالقبيح أنسب وأرفع «فأكثر القاذورات وردت بالكنايات،

---

(١) الحصري: جمع الجواهر ص٢١. (٢) المصدر نفسه ص٥٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٤.

كالغائط: وهو المطمئن من الأرض، وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة ذهبوا إلى ذلك الموضع، فسمى ما يخرج من الإنسان باسم موضعه، وكذلك الاستنجاء مأخوذ من النجو، وهو المكان المرتفع؛ لاستتارهم وراءه، والحشى... والعذرة... وطيب الأردان، وإنما ذلك كله للفرار من النطق بأسماء الأقذار»[1].

وإطلاق أمر الإمتاع بالنوادر والطرائف الظاهرة الرفث والقذف في ألفاظها لا يلغي مسؤولية المستمتع في تعمق ما خبث من دلالة بعض النوادر وإشارات بعض الحكايا التي يرمي رواتها إلى النيل من الدين أو التعريض بشأن المؤمنين، يقول الحصري منبهاً على ذلك: «وقد تجنبت أن أُهدي إليك وأورد عليك، ما يخرج به قائله في الدين عن اتباع سبيل المؤمنين، فمن أهل الإلحاد والأهواء من يسرحوا في ارتغاء، ويطلب ما يشفي به من دائه، ويضحك خاصة أودّائه، ويغر به من ضعفت نحيزته، ونحفت غريزته بما يكمنه، بألطف ما يمكنه، كمون الافعوان في أصول الريحان، إذا قابله بشمه، قتله بسمه، كما حكى الجاحظ عن الشرقي بن القطامي أن ابن أبي عتيق لقي عائشة رضي الله عنها على بغلة فقال: إلى أين يا أماه؟ فقالت: أصلح بين حيين تقاتلا، فقال: عزمت عليك إلّا ما رجعت، فما غلسنا أيدينا من يوم الجمل حتى نرجع إلى يوم البغلة، وهذه حكاية أوردها الشرقي [الوليد بن حصين الجعفي] لغله ودغله على وجه النادرة، لتحفظ ويضحك منها، ويتعلق بها من ضعف عمله، وقل عزمه، فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين رضي الله عنها، ومثل هذا كثير مما لو ذكرته، لدخلت فيما أنكرته، فقد قيل الراوية أحد الشاتمين، كما قيل السامع أحد القائلين»[2].

وإذا كان ابن قتيبة قد ترخص أيضاً في رواية نماذج هذا المجون المتطاول على الدين ذي المساس بشأن المؤمنين، بدعوى أن الوزر على قائله، ولا إثم على ناقله،

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢.

(٢) الحصري: جمع الجواهر ص٣.

فإن الحصري القيرواني لا يرى ذلك الإمتاع أو اللذة الناجمة عنه إلاّ فساداً مغايراً للصلاح، وشذوذاً خارجاً عن قوامة الجماعة المسلمة وأمرها يقول: «وقد رام ابن قتيبة تسهيل السبيل في مثل هذا، فقال: مهما مرّ بك من كلام تنفر عنه نفسك، فلا تعرض عنه بوجهك، فالقول منسوب إلى قائله، والفعل عائد إلى فاعله. قلت: وليت شعري ما اللذة فيما يضحك منها، من هو معرض عنه، إلاّ أن يدخل في حد المستهزئين، وحيز المتلاعبين، نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[1].

وأنشد أبو نواس الجماز شعراً من أعابيثه ومجونه كفر فيها، وقال للجماز: أين أنت من هذا الطراز؟ قال: أنا لا أتعرض لمن أعضائي جنده، يحرك علي منها ساكناً، أو يسكن متحركاً فأهلك. وقد طرد الجماز أصله في التحرز مما تعلق عليه من شناعة، أو تلزمه فيه تباعه فقال بمدح...»[2].

وفي ضوء المعايير السابقة المقيدة للاستمتاع بالرفث والقذف من القول في الشعر أو النثر بالحال وموضعه من الجد والهزل، والراوية المتمرس صاحب العلم، والقليل العارض الذي لا مساس فيه بالدين، يمكن تقويم التضاد في موقفي ابن الأنباري وابن المعتز من مجون أبي نواس، على أنه واقع في دائرة الإفراط رفضاً خلقياً وقبولاً فنياً.

فابن الأنباري يدعو إلى الإضراب الكامل عن رواية مجون أبي نواس والتنزه عن حكايته مشافهة أو تدويناً، لآثاره الرديئة على الكبار ذوي الأسنان والصغار الأحداث على حدّ سواء، حيث «يهيج الدواعي الدنيئة، ويقوي الخواطر الرديئة، والإنسان ضعيف يتنازعه على ضعفه سلطان القوى، ونفسه الأمارة بالسوء، والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كرة منحدرة من رأس رابية إلى قرار فيه نار، وإن لم تحبس بزواجر الدين والحياء، أداها انحدارها إلى ما فيه هلكتها.

---

(١) الحَوْر بعد الكَوْر: حديث معناه نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة أو من فساد أمورنا بعد صلاحها، وقيل معناه نعوذ بالله من الخروج على الجماعة بعد أن كنا فيها (اللسان: مادة حور).

(٢) الحصري: جمع الجواهر ص ٤.

والحسن بن هانىء ومن سلك سبيله من الشعر الذي ذكرنا شطار كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسنوا ركوب القبائح، فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم، وعلى كل متصور أن يستقبح ما استحسنوه، ويتنزه من فعله وحكايته»[1].

وأبـو العباس عبد الله بن المعتز لا يرى إلاّ الفن فيصلاً في الإمتاع مهما يكن الشعـر ماجناً متعهراً، وحجته في ذلك تناشد الناس لهذا اللون من الشعر، ورواية العلمـاء الثقات له، وعدم ورود نهي عنه يقول: «وهل يتناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفـرزدق وعمـر بن أبي ربيعـة وبشـار وأبي نواس على تعهرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم، إلاّ على ملأ من الناس وفي حلق المساجد، وهل يروي ذلك إلاّ العلماء الموثوق بصدقهم. . . وما نهى النبي صلى الله عليه وسلم ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر»[2].

والفـرق بين المـوقفين في هاتين الرسالتين هو الفرق بين رجلين؛ آخذ بالعزم متشدد يُعَنِّي أمره بكل قيد وإن كان هيناً، وآخذ بالإباحة متفلت من كل عزم يقيده، فهما متباينان لخصوص التقييد عند أحدهما وعموم الاطلاق عند ثانيهما، فكلاهما مفرط في مذهبه.

وتجدر الإشارة إلى أن مجموع الشروط والقيود السابقة ترتبط بالإحسان في الحد من اطلاق الإمتاع بالرفث والمجون من غير غاية أو التجاوز به حدود النهاية، على أن للإحسان في الإمتاع وجهاً آخر في مجال الغزل نجده في الحض على طلب اللذة في نصوص بعينها أو عند شعراء معينين. فقد سمع سعيد بن المسيَّب منشداً ينشد:

فلم تر عينـي مثـل سرب رأيتـه ... خرجـن من الـتـنـعـيم معـتـمـرات
مررن بفـخ ثم رحـن عشـية ... يلبـين للرحـمـن مؤتـجـرات

(١) الحصري القيرواني: جمع الجواهر ص ٣٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٤.

ولمــا رأت ركـب النميري أعــرضت وكــن من يلقــينــه حذرات
دعــت نســوة شم الــعــرانــين بزلاً نواعــم لا شعــثــاً ولا غبــرات
فأبــرزن لمــا قمـن يحـجـبن دونهــا حجــابــاً من الـقـسي والـحـبـرات
تَضـوَّع طيبــاً بطن نغمــان إذ مشت به زينــب في نســوة عطرات
يخـبئـن أطـراف الـبنــان من الـتقى ويخــرجــن شطر الـليل معـتـجـرات

فقال سعيد: هذا والله مما يلذ سماعه، ثم قال:

وليست كأخــرى وسعت جيب درعهــا وأبــدت بنــان الــكــف للجـمــرات
وغــالت ببــان المسـك وحفاً مرجـلاً على مثــل بدر لاح في الـظلمــات
وقــامــت تراءى بين جمــع فافـتـنـت برؤيتــهــا مَنْ راح من عرفــات

قالوا: فكانوا يرون أن الشعر الثاني له والأول لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفي يقوله في زينب بنت يوسف أخت الحجاج[1].

واستحسن الأصمعي قصيدة غزلية للحسين بن مطير يقول فيها:

ألا حب بالـبيت الـذي أنت هاجــره وأنـت بتـلمــاحٍ من الـطرف ناظــره
لأنــك من بيت لعــينــي معــجــب وأمــلح في عيني من البـيت عامــره
أصــد حياءً أن يلجَّ بي الــهــوى وفـيك الــمــنــى لولا عدو أحــاذره
وفـيك حبيب الـنفس لو تستـطيعــه لمــات الهـوى والشـوق حين تجـاوره
فإن آتــه لم أنــج إلا بظنــةٍ وإن يأتــه غيري تُنَطْ بي جرائــره
وكــان حبيب الـنفس للقـلب واتــراً وكـيف يحـب الـقـلب من هو واتــره
وإن تكــن الأعــداء أحـمــوا كلامــه علينــا فلن تحـمـى علينــا منــاظــره
أحـبــك يا سلمــى على غير ريبــة ولا بأس في حب تعــف سرائــره
ويا عاذلــي لولا نفــاســة حبــهــا عليك لمــا بالــيت أنــك خابــره

(١) الحصري: زهر الآداب ١/١٧٢ وانظر الكامل للمبرد ٢/٢٠٦.

بنفسي من لا بد أني هاجره ومن أنا في الميسور والعسر ذاكره
ومن قد لحاه الناس حتى اتقاهمُ ببغضي الا ما تُجِنُّ ضمائره
أحبك حباً لن أُعَنَّفَ بَعْدَهُ محباً ولكني إذا ليم عاذره
لقد مات قبلي أول الحب فانقضى ولو متُّ أضحى الحبُّ قد مات آخره
كلامك يا سلمى وإن قل نافعي ولا تحسبي أني وإن قل حاقره
ألا لا أُبالي أيُّ حيٍّ تحمَّلوا إذا ثَمَدُ البرقاءِ لم يَجْلُ حاضره

قال الأصمعي: لو كان شعر العرب هكذا ما أثم منشده[1].

«وكان المأمون يقول: من أراد أن يسمع لهواً بلا حرج فليسمع كلام العباس» والعباس بن الحسين من أشعر الهاشميين، وهو يعد في طبقة إبراهيم بن المهدي.

ومن شعره:

أتاح لك الهوى بيضٌ حسانٌ سبينك بالعيون وبالشعور
نظرت إلى النحور فكدت تقضي وأولى لو نظرت إلى الخصور

وهو القائل أيضاً:

صادتك من بعض القصور بيض نواعم في الخدور
حور تحور إلى صبا ك بأعين فهن حور
وكأنما بثغورهـ ـنّ جَنَى الرضاب من الخمور
يصبغن تفاح الخدو د بماء رمان الصدور[2]

وختم ابن قتيبة كتاب النساء بمختارات غزلية تحت عنوان «أبيات في الغزل حسان»[3] لأبي صخر الهذلي، مجنون ليلى، العباس بن الأحنف، العباس بن جرير

(١) الشريف المرتضي: آمالي المرتضي ١/ ٤٣١-٤٣٢.
(٢) الحصري: زهر الآداب ١/ ٩٢.
(٣) انظر ابن قتيبة: عيون الأخبار ٤/ ١٣٨-١٤٥.

من ولد خالد بن عبد الله، يزيد بن الطثرية، ابن ميادة، علي بن الجهم، جرير، ذي الرمة، حميد بن ثور الهلالي، قيس بن ذريح.

فمن هذه المختارات قول الشاعر[1]:

يقر بعيني أن أرى من مكانه ... ذرى عقدات الأبرق المتقاود
وأن أرد الماء الذي شربت به ... سليمى فقد ملَّ االسرى كل وافد
وألصق أحشائي ببرد ترابه ... وإن كان مخلوطاً بسُمّ الأساود

وقول أبي صخر الهذلي[2]:

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذُّعر
فيا هجر ليلى قد بلغت بي المدى ... وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر
ويا حبها زدني جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وصلتك حتى قيل لا يعرف القلى ... وزرتك حتى قلت ليس له صبر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
إذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها ... كما انتفض العصفور بلله القطر
هل الوجد إلا أن قلبي لو دنا ... من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر

وقال قيس بن ذريح[3]:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ... ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً ... فليس وإن متنا بمنفصم العهد
ولكنه باق على كل حادث ... وزائرنا في ظلمة القبر واللحد
يكاد حَبابُ الماء يخدش جلدها ... إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد

---

(١)و(٢) المصدر السابق ٤/١٣٨.

(٣) المصدر السابق ٤/١٤٥.

ولــو لبست ثوبــاً من الــورد خالصــاً لخــدش منهــا جلدهــا ورق الــورد
يثــقــلهــا لُبس الــحــرير للينــهــا وتــشكــو إلى جاراتهــا ثقــلَ العِقــدِ
وأرحــم خديهــا إذا ما لحــظتــهــا حِذاراً للحــظي أن يُؤثِّــر في الــخــدّ

والخلاصة التي يمكن أن ينتهي إليها البحث في الإمتاع لخصها الماوردي بقوله: «الشعر في كلام العرب مستحب ومباح ومحظور، فالمستحب: ما حذر من الدنيا ورغب في الآخرة، وحث على مكارم الأخلاق، والمباح: ما سلم من فحش وكذب، والمحظور نوعان: كذب وفحش، وهما جرح في قائله، وأما منشده فإن حكاه اضطراراً لم يكن جرحاً، أو اختياراً جرح، وتبعه على ذلك الروياني، ووافقه جماعة»[1].

(١) الألوسي: روح المعاني ٢١/ ١٥٠.